مسرحنا العربي
تاريخ حافل - ولكن ماذا عن المستقبل

بقلم: صالح المهدي

كامل الخلعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧)

من المعلوم أن المسرح بعناصره المتكاملة حديث جدا في البلاد العربية وذلك لعدة عوامل .

ففي العصر الجاهلي عني العرب بالأدب ، وعقدوا له سوق عكاظ للمباريات الشعرية وابراز ما لديهم من بلاغة وفصاحة ، مخلدين بذلك امجادهم وآثارهم . وقد كان الشعر يؤدى بالقاء بليغ وصوت جهير مؤثر وهكذا ، فمن المحقق أنه كانت لهم طاقات مسرحية طيبة لم تنضج النضج الكامل لخدمة وثنيتهم وتنشيط مناسبات أسواقهم وحجهم .

ولما جاء الاسلام ، ونادى الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بالوحدانية ، قطع على الجاهلية مسيرة وثنيتها ، ودفع العرب الى محيط ديني واجتماعي جديد .

وهكذا أخذ الاسلام يناهض الوثنية ، ويحطم أربابها ، ويستأصل جذورها من نفوس العرب ، ويبعد بهم عن كل ما له صلة بالعقيدة القديمة من فنون مثل النحت والتصوير و « التشخيص » هذه الكلمة التي كنا نستمع اليها من اجدادنا وآبائنا اسما للمسرح والتمثيل .

وكان القرآن المبين معجزة من معجزات الرسول الجديد . فهو معجز بمعانيه وألفاظه وأسلوبه البياني ، وهو بذلك قد دخل القلوب وبهر العرب الذين كانت لهم دراية وولع بالبلاغة والفصاحة ، وحينئذ فلم تكن للاسلام حاجة للدعاية عن طريق المسرحية مثلما كان الشأن بالنسبة لبعض الأديان الاخرى .

فالوحدانية واضحة لا تقبل تاويلا ، وشعائر الاسلام وعباداته واضحة جلية ، والكتاب المبين يخاطب الألباب في منطق واضح وأسلوب في متناول الجميع . ولذلك فرغم تفتح المسلمين على الثقافات الأجنبية من هندية واغريقية وغيرها ، حيث ترجموا مؤلفات الكثيرين من الفلاسفة والعلماء والكتاب فانهم لم ينقلوا المسرحية اليونانية المتكاملة ، ولا الرقصة الهندية التعبيرية . والأسباب واضحة .

فالمسرحية اليونانية وأدبها كانا يرتكزان على الوثنية والدعوة الى تعدد الآلهة ، كما أن الرقصة الهندية ليست سوى تعبير بحركات الجسم والأيدي والرأس والعينين عن الخضوع للآلهة . وعندما اتصل العرب والمسلمون بأوربا سواء عن طريق فتح الأندلس أو فتح صقلية وجدوا المسرح مرتبطا بمعالجة شؤون العقيدة المسيحية ، ولذلك انصرفوا عن الالتفات إليه رغم توفر المسارح الرومانية لدى الكثير من الأقطار العربية .

ومع ذلك فقد ظهر من المسرح بصيص تعبيري ارتبط باحياء الحادثة التي كان لها تأثير كبير على بعض الفئات الاسلامية تلك هي مقتل سيدنا « الحسين بن علي بن أبي طالب » رضي الله عنهما في مدينة كربلاء بالعراق .

فعندما انتقلت الخلافة بعد قتل سيدنا « علي » كرم الله وجهه إلى « معاوية بن أبي سفيان » . لم يبايعه سيدنا « الحسين » وبقي في الحجاز والفتنة قائمة بين الهاشميين والامويين ، وعند تولي « يزيد بن معاوية » الخلافة تحقق الهاشميون من أنها أصبحت وراثية بين الأمويين ، ولا طمع فيها بعد ذلك . فدعوا سيدنا « الحسين الى العراق ، وأقسم العراقيون على مناصرته والحرب بجانبه إلى أن يسترد الخلافة وترجع الى بني هاشم . إلا أنه قتل رضي الله عنه وأتباعه . ومن هذه المأساة نسج شيعته قصة مأثورة يؤدونها كل سنة في ذكرى مقتله في كل الاقطار التي يوجدون بها ، وخاصة في إيران والعراق . وتؤدي هذه القصة في لوحات متتابعة تمثل مقدم سيدنا « الحسين » إلى « كربلاء » ثم نشوب الحرب ثم استشهاده ، والاحتفال بدفنه . وهذا المظهر البسيط من المسرح بقي على حالته يقدم مرة في السنة بدون أن يدخل عليه أي تطور من العصر الأموي إلى الآن .

ظاهرة اخرى ؟!

وقد برزت في العصر العباسي ظاهرة أخرى يقصد بها تشويه الأمويين والدعاية للعباسيين يقوم بها « عبد الرحمن بن بشر » في بغداد إثر صلاة الجمعة بالساحات العمومية ، حيث يجلس مع جمع من أصحابه على مكان مرتفع وينادي في الناس حتى يجتمعوا حوله ثم يعيد النداء : « أين أبو بكر » ؟ . هاتوا لنا أبا بكر . فيأتون له برجل ، فيسأله أمام الملأ : أأنت أبو بكر ؟. فيجيب بنعم فيسأله : أأنت آمنت برسول الله وقد كذبه الناس ؟ أأنت